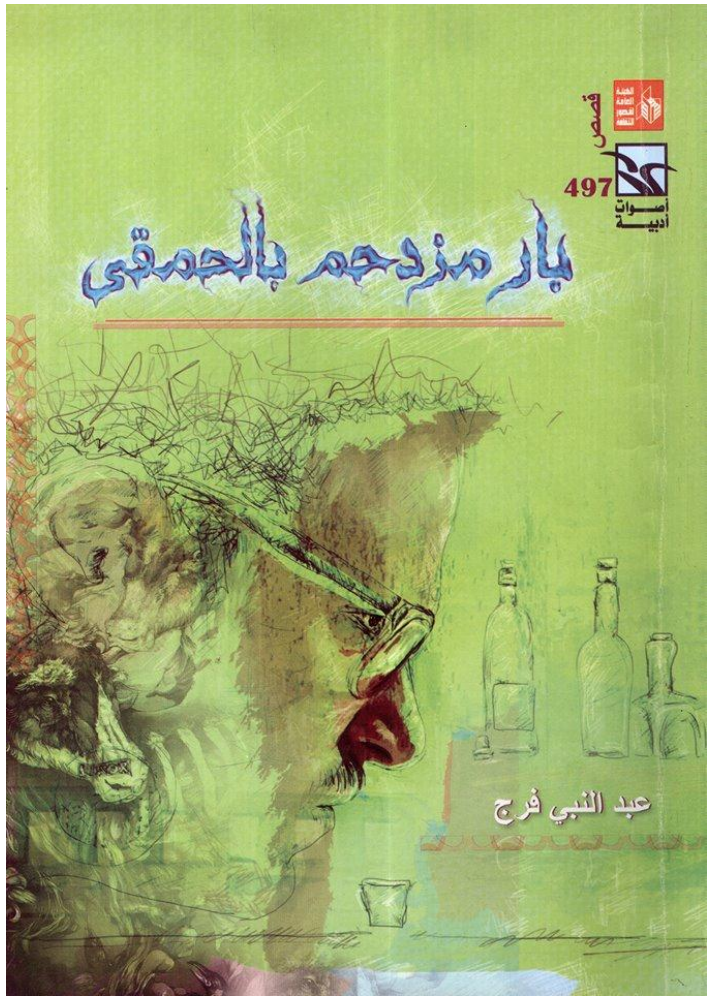

بار مزدحم بالحمقى

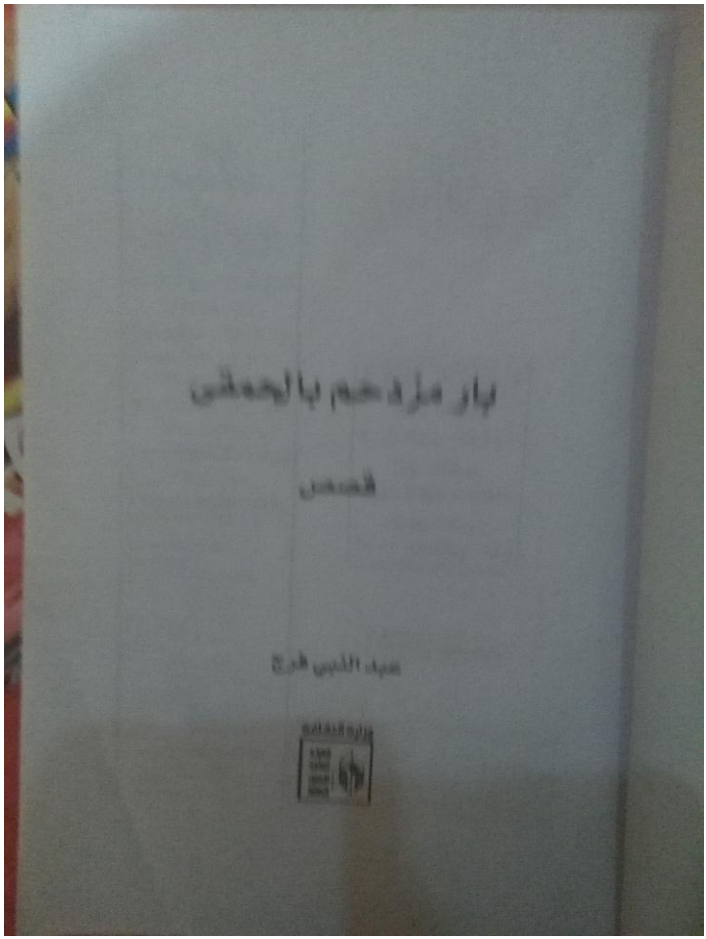
بار مزدحم بالحمقى
قصص
عبد النبي فرج

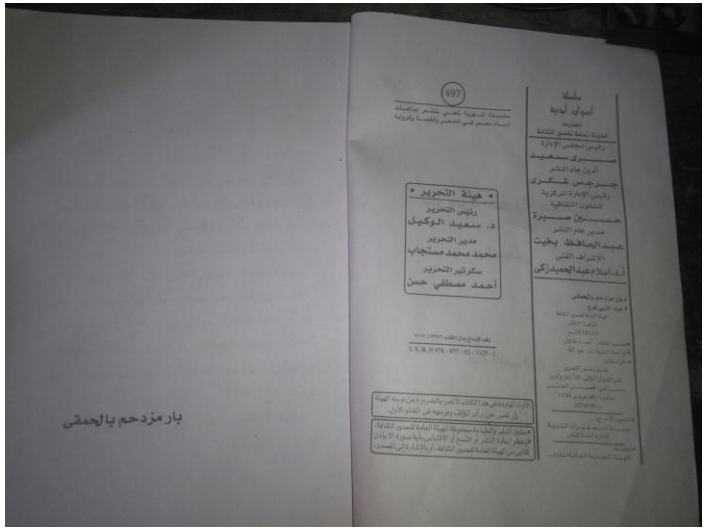

مجموعة قصصية

عبد النبي فرج

١ – الغندور

الشمس تلهب الأرض بنارٍ موقدة، ونحن نلهث تحت وطأة الرطوبة الخانقة، المراوح تقلب الصهد، ونحن نتقلب على الأسرة فى قيلولة قلقة، الشوارع خالية من البشر، إلا من شاب يقف تحت ظل مظلة معرشة بالغاب، أمام الدكان.

يمسك خرطوم المياه ويرش الشارع، حتى تتلطف درجة الحرارة ويخفت الصهد، كان جسده طويلاً ممشوقاً كرمح، عيناه عينا صقر، ينظر فى خبث، فكانت الناس تتوجس من نظراته الإبرة باعتباره حساد ينَشَّ العيل نظرة، يقع يتمرغ فى الوحل، لذلك عندما يعود عيل يبكى أو مجروحاً، تلتقطه الأم وتضعه تحت الحنفية، وتغسل له وجهه ومكان الجرح.

– نَشَّك ابن الحرام "أخسر ديني ما نَشَّه إلا هو أبو عين صفره اللى تندب فيها رصاصة"،

وعندما سقطت امرأة أمام الدكان

تنهد تنهيدة ذات مغزى منحرف

– إيه اللى طلعكِ من بيتك، على رأي المثل من طلع من دارة اتقلّ مقداره.

يرتدى جلابية بيضاء على اللحم ويظهر السروال القصير واضحاً على مؤخرة رشيقة ويتبختر فى الشارع كمراهق غندور، ويبتسم ابتسامة صفراء ويغمز بعينيه كلما مرت سيدة ذات حسن وجمال. وفى يوم سمعنا طلقاً نارياً، أول من خرج كان محمد السيد عثمان جار الغندور، الحائط فى الحائط، وجد القاتل يمسك السلاح بيد ويتحرك فى الشارع بسرعة دون أن يجرى، أبتهج وهتف "كرم" ورفع علامة النصر، فعاجله القاتل برصاصة فى صدره فأردته قتيلاً، بجوار جثة الغندور الذى ظل قابضاً على الخرطوم الذي يتدفق منه الماء فى الشارع.

٢ – اللصوص

أبى كان قوياً جداً، لأنه كان يشتغل بتحميل الجرار بالرمل بالكوريك، أو السباخ بالمقطف، وهذا العمل يحتاج لقوة بدنية، ثم انه يظل يعمل من الفجر إلى ما بعد الظهر، ثم يعود للبيت ليأكل ويقيل ويذهب إلى الجبل بعد ذلك ولكنه كان يخاف جدا من الليل، و كان يصاب بالذعر والهلع لو انطفأ نور الكهرباء فجأة فينادي، الكبريت، الكبريت فين يا أم سعيد؟ وأنا وأمي نضحك، فيردد يخرب بيت أبوكم يخرب بيت أبوكم، كان أبى سريع الكلام، فكان من يتحدث معه لأول مرة، يطلب منه أن يعيد الكلام مرة ثانية، والبعض كان يسخر من أبى مردداً جملة الفنان حسن مصطفى لعبد الله فرغلى فى مسرحية مدرسة المشاغبين، المدرس علام "حبه، حبه علي يا علام" أو انجليزي ده يا مرسي، ولم نعرف السبب لهذا الخوف الذي جعله مثاراً لسخرية أهل البلدة. وقد تسلط عليه حمزة أبو حامض، فيتعقب أبى فى صلاة الفجر، وبعصا صغيرة يأتى من ورائه ويمرره على أذنه، فيستعيذ أبى من الشيطان الرجيم بآيات الذكر الحكيم، أو يدخل فى شوال ويتمرغ أمام أبى فى الطريق فيفزع ويجري صارخاً حتى توقف عن صلاة الفجر فى الجامع وكان عدم ذهاب أبى لصلاة الفجر فاجعة

مريرة، فكان قلبه معلقاً بصلاة الفجر فى الجامع ولذلك كان يهتف بالدعاء ان يغفر له ربنا هذا الضعف الذي أعجزه عن إقامة الفرض.

كان أبى يشقى فى الحياة لأن أمي أنجبت له ٦ أولاد فوق بعض، ولم يكن لدينا دخل سوي من ذراعه قطعة أرض فى حدود سبعة قراريط فى الجبل يرويها بجوز الصفيح معلق بهم خشبة ويرفعهم على كتفه من بئر فحره فى منطقة منخفضة بمساعدة أصدقائه طوال ثلاث عصارى وكان يزرعها خضارا، طماطم، وبسلة، وخيارا، وكان بها ثلاث نخلات تعطى أجمل وأطعم بلح، واحدة خضراوي، بلحتها طويلة، والثانية صفراوي بلحتها صغيرة مسكرة والثالثة حمراء بلحتها طويلة، كان أبى يصحو من النوم قبل العصر، ويذهب للجبل، ليصل مع أذان العصر فيصلي ويظل باقى النهار هناك يروي شتلات الطماطم بالجوز الصفيح أو يملح الأرض أو ينتقى الحشائش النامية بجوار جذر العرش وعندما يستريح يقعد تحت ظلها ويجمع البلح الساقط، ويجلس بينها، النخلات مثلث والطراوة تغربل تحتهم، وأبى من التعب يغط فى نوم عميق وعندما يقوم ينظر حوله لا يجد احدا فقد كان هو الوحيد الذى استطاع أن يزرع مساحته وسط الصحراء الخالية من الزرع والبشر ولم يكن يؤنسه شيء وبرغم ذلك لم يكن يخاف من الصحراء فلا شيء مؤذٍ فيها حتى الثعابين غير سامة فيها، هذه المعلومة عرفها من صائد للثعابين، مر عليه يحمل كيساً على كتفه، وعندما رأي أبي رمي عليه السلام:

– السلام عليكم يا حاج! قام أبى على ركبته وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته، تفضل الشاي على النار.

الرجل كان قد حود عليه بالفعل، قام أبى ورحب به فى تهليل وصنع له أحلى كوب شاي كما قال الصياد، وتسامرا وتعارفا وضحكا حتى أن أبى كانت عيناه تدمعان، على أحوال الدنيا وعندما قام ليعود لبلده قال أبى:

كل ما تيجي أبقى حود، قال لأبى وعلى وجهه علامات القرف، المنطقة دي الثعابين من النوع "الحبل أحسن منها" أنا أبحث عن مناطق يكون فيها الزواحف لها قيمة، الواحد يعمل حسابها، ويحس انه صياد بجد، له قيمته جنب الصيادين الكبار، أما الثعابين الموجودة هنا، فالعيال تقعد تلعب معها، سلام يا حاج.

تشحب الشمس وتتكاثف الظلال، ويصفر الجريد من الريح، وتتمايل النخيل كأنها ستسقط، يتوتر، يتوقف عن العمل، يردد "سرقنا الوقت" ويضع عدة الشاي فى الغاب النامي على البئر الذي ينزح منه الماء، تنق الضفدع، ويهتز الغاب، يسرع فى التقاط الجلابية ويضع المداس تحت باطه والمقطف بالبلح فى يده ويسرع عائدا للبيت.

٢

لا يعد أبى للبيت دون أن يكون فى المقطف شيء: خيار، بطيخ، شمام، فى كل موسم يهل علينا، بالمقطف مليان، وعندما ينقطع فترة

دون أن ياتى بشيء، كنا نغضب ولا نبالي بعودته، وفجأة يخرج من المقطف الثمار، فنعود ننتظر المقطف العامر بالخير مرة أخري، نهلل للبشائر ونتذوق طعمها المسكر فى الفم ونستحلب البلح كأنه مصاصة، ونأخذ أنا وأخوتي نتجاذب المقطف، وكل منا يحاول أن يلتقط منه أكبر عدد من الثمار، وعندما يعود بثمار محدودة نعرف أنه مر على أخته فنغتاظ ، وفى يوم وجدنا الجرار يصلح، فى ارض جارنا، ثم آخر يأتى بالبلدوزر، ليصلح أرضه، وبدأ الأهالي فى غزو الصحراء ودق المواسير فى جوف الأرض وشراء المكن وبدأت الناس تزيد من حولنا، وفرحنا بالعمار والونس، الذي يحيطنا، وبدأ الزرع يحيط بنا والجنائن تثمر، وبدا يتغير الحال ويذهب أبى يجد أقداماً مطبوعة فى قلب خطوط الخيار أو الطماطم أو الفول الحراتى، ابتأس خاصة أن المحصول بدأ يقل بشكل مذهل وفى نهاية المحصول عندما يحسب المصاريف لا يجدها قد أتت بما يكفي، كل يوم الأقدام تزيد والحمير تطلق فى الزرع وشيء غريب وعندما يذهب لا يجد أحدا ولا يقترب منه احد ليطلب منه ثمرة طماطم ولم يكن متأكدا أن الجيران يفعلون ذلك خاصة أنهم مؤدبون ومطبوع على وجوههم الطيبة والإخلاص وبرغم ذلك لم يجرؤ على حراسة الأرض، لم يجرؤ أن يموه ويتخابث ويشعل نارا وكأنه سيبيت حارساً للزرع من أولاد الحرام، ويظل فترة فى الليل وينسلت ويعود، لكن عندما تشحب الشمس، يحمل ما يجمع وينطلق عائدا للبيت وفى النهاية طبع أبى أرضه مع

الجيران فلم يعد يزرع خضارا، أحضر شتلات البرتقال وزرعها واختفى المقطف والفواكه والخضار، واحتمل سنوات لا يفعل شيئا حتى أثمرت ولم يعد أحد يسرق من أرضه سوي النخلات وكلما نضج بلح يأتى اليوم التالي ليجده قد تم جنيها، وكلما اغتاظ وأخذ يشكي لأمي تقول له: اعتبرهم زكاة على الأولاد، يمكن ربنا يطرح فيهم البركة، لكن دا غصب يا ولية، تقول أمي: آدي الله ودي حكمته لو في أيدك شيء أعمله، يا سيدي اللى يجي لك غصب عده جوده، يكظم أبى غيظه وهو يشعر بألم ممض وكأن سكينا تخز لحمه، ثم يقول "طيب يتركوا للأولاد شوي، يعني عندي البلح ويتمتع بيه ولاد الناس، وأولادي محرومون ودا يرضي ربنا، ترد أمى: أنت فاكر ربك يسيب شيء ولو كان ساب كان ساب الدم يخلط على اللبن، دي نار تنزل الجوف تهريه؟ وحّد ربك، انصاع أبى وسكت وكلما ذهب يجد النخلات يتمايلن فارغات من البلح وكأنها عواقر، فيشعر بالحسرة، وينسي مع الأيام وعندما تمر السنة وتطرح النخلات ينسي حزنه على الموسم الفائت، والذي سرق منه ويمني نفسه بالتلذذ بأكل البلح، وكان يتخيل نفسه وهو يأكل فيشعر بالسعادة، وعندما نضج البلح ولم يسرق قال: مازال الخير عامراً فى قلوب الناس، أكيد من قام بسرقة النخلات عيل قليل الدين، وربنا شل يده أو تاب عليه ربنا، حد عارف، أحضر البلطة، وذهب لحمدان الجمال لكى يمر عليه ويحمل الصبائط، مر عليه بعد صلاة العصر وركبت الجمل وراء حمدان والجمل يهتز حتى

نمت وكده أسقط من فوقه لولا أن يد حمدان جذبتني وقرص وركي قرصه جابت دماً، وأخذت أبكى، وأمى قالت: الله يخرب بيت اللى جابوك يا حمدان، ويعني يا أم سعيد لو يقع من على الجمل مش أتحمل مسؤوليته؟ وأروح فى سين وجيم، وكيف ولماذا؟ معاك حق بس مش بالشكل ده، دا الواد فرفر فى يدك. حاول حمدان يسترضيني ولكنى ضربت يده وزدت فى البكاء وصلنا الجبل وجدنا النخلات خاليات من البلح، برك أبى على الرمل ووضع رأسه على ركبته ويده على رأسه وظل صامتاً، سحبنى حمدان وراءه وأنزلني من على الجمل وكنت خائفا ولكن وجدتني ساقطا على الأرض، أدار حمدان الجمل وقال: سلام، وأخذ يضرب الجمل الذي يصدر رغاء، وحمدان لا يبالى، حتى اختفى بين أشجار البرتقال. بعد فترة قام أبى وجر البلطة واقترب من الخضراوي وضرب، ضرب، يضرب بقوة، وأمي تردد "بلاش، بلاش يا خويا بتر روح غدر حسابها عسير عند ربنا فى الدنيا وَالآخِرَةُ، لم يأبه وواصل، غاضباً يضرب بعنفٍ لم أره هكذا أبداً، يكيدوني بمالي، يكيدوني بتعبي وشقاي، العرق يسيل على وجهه، وأخي لا مبالٍ يشد بالحبل المعلق فى عنق النخلة لكى يسقطها والغل يبين على وجهه، البلطة تخرط جذع النخلة وتطقطق، والعرق يغمر أبى، وقد تبلل ظهره، وان أنصت لصوت يشبه الأنين يصدر لا أعرف من أين؟ من النخلة أو أبى؟

٣ – مرثية

انشغل بعرس الابن فلم يذهب للحديقة ويري أشجار المانجو ولكنه كان متأكداً أن الثمار قد نضجت، لذلك اتفق مع التاجر أن يمر عليه "الأربعاء" ليفصل الزرع. ذهب يوم الثلاثاء ليقدر قيمة الثمار بدقة بحيث لا يبخسه التاجر حقه، برغم أنه يتحلى بالأمانة، لكن التاجر بطبعة لئيم والمهم عنده المكسب، وعموماً محدش بيرغم حد، لا على البيع ولا على الشراء، اختلفنا، العربون يعتبره فى جيبه، احنا سمعتنا زي البرلنت، يفصل الزرع بحق ربنا، أهلاً بيه، غير كده التجار على قفا مين يشيل. قبل أذان المغرب كان يقف على رأس الأرض، الشمس مشتعلة بوهج دموى والسماء صافية، نظر إلى أشجار المانجو النادرة والذي أكلت عمره لكى تصبح ما هي عليه و خلع الجلابية الكشمير وخاض فى الجنينة، زعر، الثمار ساقطة تحت الشجر، ومتراكمة فوق بعضها، والعصارة التى بداخله بدأت تنفجر وتسيل، فى خطوط عميقة ثم تضمر، امتدت يده والتقطت واحدة

فتفسخت بين يديه، ونزت العصارة من بين أصابعه، هلع وتشتت عقله وتنقل تحت الأشجار العملاقة، بقع الشمس المتناثرة من بين أوراق الشجر تضعف، وقدمه تغوص فى ثمار المانجو، والشجر خال من الثمار تماماً. سقطت ورقة جافة ثم تلتها ورقة أخرى، يتحرك فى خطوط الأرض فيجد الشجر كله مفروطا، يسير يتبعه ورق أشجار المانجو الجاف، والظلال تتكاثف، وصمت غريب كأن الحياة خلت "لا عصافير ولا يمام، ولا حشرات تتحرك تحت غطاء الورق الجاف"، أخذ يحرك رأسه يميناً ويساراً، حتى خرج من الأرض، آسفاً على الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْغَرُور، الرجل الصلب الذي تقلب فى المحن وقف على تلة فى نهاية الأرض من الناحية الغربية، ينظر إلى الشجر الذى بدأ يتعرى، والظلام الذي يطغى على الكون والصمت المريع وبكى، واضعاً يده على وجهه وعينيه، ومرت حياته فى ومضة، فجفت دموعه ودعك عينيه فتكشف بصره. قام يبحث عن ماء ليشرب ويبحث فى الخص فلم يجد، كانت القلة مقلوبة خالية من المياه، توقف عن البحث، عندما رأي الناي مغروساً فى حزمة حطب فى سقف الخص، سلته وأخذ يتأمل فيه وسار حتى جلس على التل وراح ينظر إلى الأشجار وينفخ فى الناي الذي يخرج مرتجفا وحزينا حزناً مؤلماً حد القسوة.

٤ – مسامرة ليلية

أعود للبيت متأخرا مرهقاً، أخلع ملابسي، وأمدد قدمى حتى تأتي زوجتى بالطعام وعندما انتهى، أتوضأ وأصلى صلاة العشاء ثم أجلس أمام التلفزيون نتسامر وتحكى لى مشاكلها مع الأولاد والجيران وأقاربها حتى أنام أمام التلفزيون، فتنغزني فى جنبي، فأقوم لأدخل غرفة النوم، اليوم وجدتها تحوم حولى وأنا أخلع ملابسي، وعلى وجهها فرحة طاغية لم أعهدها منها منذ فترة طويلة، نظرت إليها، فيه إيه؟ فرحانة يعني! ودا يزعلك فى حاجة؟ أبدا يا ست ربنا يفرحك على طول، خلعت الشراب، وبدا الهواء المتدفق من الشباك يجفف العرق وينشر الألم من السير الطويل فى المدينة، هاتى من الآخر، مفيش أصل "مها" مين مها؟ مها خطيبتك السابقة المصونة، مالها؟ أصل مسكوها مع موظف زميلها فى المستشفى فى غرفة الولادة، وهما فى وضع مخز، شعرت بالغضب يجتاحنى، ابتلعت ريقى وقلت: دي بلد وسخة أساساً تعمل من الحبة قبة، يعني لو واحد سلم على واحدة فى أول البلدة، عندما يصل الخبر إلى آخر البلدة يبقى مارس معها الحب، وفري دماغك ويطلى ترددي كل تشنيعه أو إشاعة .
التزمت الصمت ومددت يدي ناحية علبة السجائر وأشعلت واحدة وخرجت مني تنهيدة،فالتفتت إلى زوجتي،وغمغمت بكلام تجاهلته.

مها كنت قد خطبتها لمدة أربع أشهر وكانت فى غاية الأدب والالتزام كما تتميز برقى، حالة فريدة لم أجدها فى هذه القرية البائسة، التى لا تعرف من الدنيا سوي الأكل وبناء البيوت ومواهب فى النصب على عباد الله، ولكن هذه كانت من عالم آخر، كانت تجلس وتتكلم بحرية فى كل المواضيع فى الموسيقى والأدب والسينما، ولم أشعر معها أبدا بالاغتراب أو انه يجب أن أتحسس كلامى، كانت تؤم روحى، وعندما انفصلنا كان اليوم الأشد تعاسة فى حياتى، وكله بسبب أخيها المجنون الذي كرّهنى فى الحياة، وبعد زواجها وزواجي، وتسليمى بالنصيب والقدر، وأن الحياة لا تتوقف على واحد، أو واحدة، وكانت بالنسبة لى نسمة رقيقة، فبمجرد أن تمر علىّ وهى عائدة من المستشفى أو ذاهبة إليها، وترانى أقف على الباب أو جالس على المصطبة تحود وتسلم فى أيام إجازتى، فيرفرف قلبى، والله لم تمر على إلا وتذكرت بيت إبراهيم ناجى " هذه الكعبةُ كنّا طائفيها والمصلّين صباحاً ومساءَ.

رفْرَفَ القلبُ بجنبي كالذبيحْ وأنا أهتف: يا قلبُ اتّئدْ. كانت قصيدة إبراهيم ناجي جزءاً من مقررات الدراسة فى المرحلة الثانوية وكنت أحفظ القصيدة عن ظهر قلب، وأكتبها بخط جميل منمق على التختة وأكتبها فى خطابات غرامية للبنات ولأصدقائي، كانت تسحرنى وهى تسير فى رشاقة راقصة باليه وعندما ترانى زوجتى واقفاً معها، تظل تبوخنى بكلمات مثل السم، مش فاهمة والله شيء غريب اللى

مترضهوش على نفسك ما ترضهوش على غيرك، أحاول ان أفهمها: أننى احترم هذه السيدة واحترم زوجها وهى سيدة فاضلة، فاضلة وتعوج فمها يسارا ويمينا، هو دا راجل ودا المره أحسن منه وأنا مش فاهمة الرجالة بقى مالهم كده، اضحك، لكى أداري حنقي وغيظي من هذه المعارك التافهة، بصى انا طول عمري مديكي الحرية، عادي الناس مش وحوش ولا كلاب سعرانة، نعم، وأنت بتشفنى بكلم حد فى الشارع، أو واقفة مع حد، أنا أحترمك وبقدرك وأنت تتعمد تهنى، والله والله لولا احترامي لك لأضربها بالشبش على وجهها وساعات كثيرة تنتهى ببكاء أو غضبة، وأنا لا أتوقف عن الكلام معها، وهى لا تتوقف على المرور علي، وكلما مرت مع ابنها أتمنى وياء يخطف زوجها ليتيح لى الفرصة أن أواصل ما انقطع، وبرغم أنها تري فى عين زوجتى الغضب والغيرة التى تبين على وجه زوجتى لتحيله لأصفر ليمونى، وأنها تغار من الهواء لكنها لا تعير لذلك أهمية، ولا يظهر على وجهها أي أثر، كان وجهها هادئا وبريئا، تنظر إليك فتؤثرك وتنسى الذي فى يدك وعندما تصادف زوجتى تقف معى، تكشف عن ابتسامة رائعة وتقابلها فى غاية الرقة والعذوبة ويا حبيبتي، ازيك وحشاني، وتظل تمدح أمامي فى جمال زوجتى ورقتها وذوقها الرفيع وعندما تتركنا، تزفر زوجتى: شرموطة.

هاتى الجلابية الأول يا مدام وسيبى الملك للمالك

تركتنى ثم أحضرت الجلابية، وقالت: أنت عارف لو حد تانى غير مرات أخويا وأنت عارف انها شغالة معها فى نفس القسم، قالت لى "والله ما اصدق لكن أنت عارف سلوي، كلمتها اصدق من كلام أخويا إبراهيم، اللى كلامه يصفى على مافيش، عمرها ما تكذب أبداً، قالت: كان يوم تطعيم الأطفال وسمعت جلبه جريت وجدتها خالعة الحجاب ، وشعرها مهوش، ونازل على وجهها ، والموظف الذي اكتشف الأمر، حكي ما حدث أمام الجميع، وأخذت تحكى لى بالتفاصيل الدقيقة وقائع الفضيحة وأنا مشوش، أسمع نصف الكلام والنصف الآخر يضيع منى وقد شعرت بالأذية، من الكلمات السم والصور التي تلاحقنى وأنا أراها تتقلب أمام عيني وجسدها عار ويقبلها الغريب ويتحسس جسمها وهى مستغرقة فى النشوة.

٥ – المعلم

كان مثارا لحكايات لا تنتهى فى البلدة، كصعلوك يعيش على هواه، يصنع مقالب لأهل البلدة، تحميه قوته وعائلته الغنية، ثم أن دمه الخفيف كان يجعل الناس تسامحه، عرفته فى أواخر أيامه كان مريضا بالقلب والكبد، فكان يأتى من بيتهم يحمل كيس الدواء فى يده، ويتحرك بصعوبة، ويجلس على أي مصطبة ثم يواصل السير حتى يصل عند شجرة بجوار الوحدة المحلية، مقابل بيت صديقه عرفان، عندما يصل تقوم زوجة عرفان بإخراج الحصيرة ومخدة ومسند وكابرتايه لكى يضعها على رجله ويلتف حوله محبوه من كل الأجيال، وكان عليهم بسطوة غريبة، كان بالنسبة لهم الأب الروحي والملاذ والحماية فمن ليس معه فلوس يتصرف له، ومن فى خصام مع أحد يأتى بالمتخاصمين، ويُنزل فيهم سيلاً من الشتائم المتنوعة والذى حفظها منه من يجلسون فى محيطه، وأحيانا يركز على ركبته ويعلم على وجه كل واحد بكفٍ، ولا احد يغضب، بالعكس كان الغضب والصوت العالى يخفت، والوجوه تفيض بالبشر، ويقوم المتخاصمان بالسلام والأحضان وتزول كل ضغينة أو كراهية، بالعكس تتوطد أواصر الصداقة أكثر من الأول، كان التجمع مكاناً دافئاً يلجأ إليه كل من ضاقت نفسه من الحياة، من مصدور، ومن محزون، ومن يسير بالصدفة فالنكت والمسامرات والحكايات الطريفة والغناء والتقليد

والمزاج أيضا فقد كان من عتاة الشرابية ومدمناً للحشيش وكل انواع الموبقات، لذلك لا ينقطع الحشيش والمخدرات من المكان ومن معه، ومن مفلس لا يجد هماً فكل شيء موجود لكن إياك "يا ابن الوسخة تفكر نفسك ناصح أو حلانجى وتخبى عن المعلم شيئاً، يمرمغ بك الأرض، عايز تبقى حبيب الملك، افتح قلبك وارمي بياضك وكن عاريا أمامه كما تكون أمام نفسك وزوجتك، وعندما تكشف نفسك اطمئن فلن تُستغل أسرارك أو نقطة ضعفك، لا فأنت فى يد "رجل" وليس حفيظة، وعلى فكرة حفيظة تبقى أمه، وهى شخصية فريدة ستكون مثارا لأحداث قادمة هادرة عنيفة تستحق أن تروى.

٢

كان الدكان المحطة الثانية الذي يستريح فيها، فى العاشرة تقريبا، أجده يلهث وقد أصفر وجهه، أقوم من على الكرسى وارمي الكتاب وأرحب به، ثم أذهب وأحضر له كوب ماء، كنت أحبه واقدره وهو أيضا، وكان كلما ازداد عليه المرض تزداد شفافيته وألقه، أذهب وأحضر له علبة عصير ويأخذها دون كلام، ويضع الشلومه ويشد ثم يطبق العلبة، ويرميها، ألله يرحم أبوك، وأحيانا يقول لى والله طول عمري أحب هذا البيت عشان ستك مبروكة وأبوك الله يرحمه، أتأثر، وتكاد الدمعة تفر منى، فالسيرة الطيبة هى الفخار الذي يتوج الروح، ثم يميل عليّ ويقول: مش عشان انا مريض لكن قسما بالله لم أقف

فى وجه فقير أو ضعيف ودخلت بيوت الناس كلها عمري ما خنت، ولا انكشفت على واحدة أو واحدة انكشفت عليّ، والله الذي سأُعرض عليه، لكن الستار موجود، ثم يمر واحد من محبيه فيستند عليه ويسير معه وفى يوم انخرط فى سهراية طويلة عن الغائبين، وأنا منصت للحكاية، سلم علينا شقى محب للمعلم، فانقطع سيل الحكاية، وانطلق سيل آخر من السباب للشقى، لماذا لا تسأل، ليه يا ابن الوسخة، يا مره، يضرب على صدره، تحرمنى منك يا ابن الكلب وسالت الدموع منه وانخرط فى البكاء، تهون عليك العشرة يا ابن المره، والشقى يقبل رأسه ويقبل يده، سامحنى ثم خلع الشبشب من قدمه وقال ما تزعلش، ثم مسح أنفه الذي سال، وأخرج المنديل القماش من جيبه ومسح به عينيه. ثم قال الشقى، أقسم بربّ العزة اللى حرمنى منك الفلوس، يعني يرضيك، أجي اشرب على قفا الناس، ترضاها لى، قال الملك، أنت تيجى وتاخد منى أنا متخدش من حد وخلى كلب ينطق بحرف أو يهين كرامتك بكلمة، كان الشقى يتكلم واللغة لا تسعفه ويبرطم بالكلام ويشرب فى شراهة، ثم قال فجأة مش عايز ارجع السجن يا خال، أنا تعبت، قال الملك السجن مش للجدعان، اشتغل، وكُل بالحلال وربنا يعينك وانا نفسي أشوف لك شغلانه؟ مرت صبية جميلة كانت تعمل فى التمريض، ترتدي ثياباً شفافة ونهدها بارز وتضع مكياجاً كاملاً على وجهها، تشتت وقال: من البلد دي، قال له نعم من البلد، دي بنت صاحبك فلان، يا نهار

اسود، ازاي يطلعها من بيته كده، قال له: سيب الملك للمالك، رمى السيجارة وهمس فى أذن المعلم فلم يسمعه، فقال: أنا عايز أرجع مراتى، قال له وماله، قال بس عايز أسألك وأنا عارف أن محدش هيقول الحقيقة غيرك، قال له من غير تأكيد: وأنا فى السجن مراتى كان مشيها بطال، قال له المعلم، نعم كان مشيها بطال، أخرج علبة السجائر، وأشعل أخرى، شائعات ولا كلام مؤكد قال: لا كلام مؤكد ومش مع واحد أو اتنين بل مع كثير، صمت والسيجارة فى يده وزفر، لبؤة، ثم أخذ يهز رأسه، ويغمغم وقد أصفر وجه وبد حائرا، فمال المعلم عليه وقال: ربنا بيسامح، رمي السيجارة ونظر للمعلم، أنت شايف كده، هز رأسه علامة الموافقة، فاخرج علبة السجائر الكليوباترا وأشعل واحدة، وانطلق فى الشارع.

٦ – ندْبَة المُغَرِّد

كان يطلق على نفسه حمزة الطائر، إعجابا بالفنان عادل إمام الذي يقوم بدور إبراهيم الطائر بطل مسلسل "أحلام الفتى الطائر" لاعب كاراتيه قديم، حصل على الحزام الأسود من نادي إمبابة الرياضي الذي كان يذهب إليه عن طريق القطار يومين فى الأسبوع، ثم توقف عن التدريب ولم يأبه بتوسلات المدرب، واندهاشه من لامبالاة حمزة بموهبته خاصة ان جسمه يصل لدرجة الكمال وقوته ليس لها مثيل.

حصل على دبلوم التجارة، بالذراع، فقد كان يغش عيني عينك ولم يقدر مراقب أن يمنعه، خاصة أن مراقبي اللجان من الغرباء، ولا هم لهم إلا أن تنقضي فترة الامتحانات ليعودوا لأسرهم بسلام، فكان يقنع بعشاء يخرج من بيت من أبناء الأثرياء، ثم يضبط اللجان فى حدود معينة.

يرتدي ترنج وكوتش رياضى ويلبس نظارة ريبان عسلى ويظل فى النادي القروي حتى وقت متأخر ثم يعود للبيت، لم يكن يعمل، فقد كان من أسرة مستورة تمتلك حدائق أشجار برتقال وعنب وتين، وكان

أخوتـه "رامـين طوبتـه"، إمبراطـور الملعـب، لا احـد يجـرؤ أن يحـدث شـغبا أو يتشـاجر وتربطـه بلاعبـي الكـرة علاقـة متينـة ولا يفـرق بـين أطفـال عنـدهم ١٢ و١٣ سـنه أو ١٨ سـنة أو ٢٥ سـنة فالكـل فـى الملعب سواسية، يتكلم معهم بجدية ويتسامر معهم، ويعزمهم فى بيته أو يخرج معهم للصيد، ولذلك كان لـه معجبون من الشباب بصورة مدهشة، لا يدخن، فقط طوال النهار فى الملعب.

بدأت سلسلة المتاعب معه، عندما دخل الجيش وقد كان سنه كبيرا لأنه قد تهرب من الجيش حتى وصل إلى ٢٦ عاما ولكن تم القبض عليه صدفة وتم إخضاعه للنظام قهراً، فى كتيبة المشاة رقم ١١، حتى جن جنونه وأخذ يضرب الضباط بشكل هستيري، ولم يتوقف سوى برصاصة تخرج من آلي فى وركه فترميه على الأرض، ظل فى المستشفى فترة طويلة وعندما تم التصريح له بالعودة للمعسكر، استطاع أن يختلس حفنة برشام متنوع ورماها فى معدته، لكنهم أسعفوه، وعاد للمعسكر بعد أسبوع، كانت العيون عليه، أربعا وعشرين ساعة، حتى أصابته هستريا وأخذ يلعن قائد المعسكر بسباب متنوع، فتم وضعه فى المعتقل، وكان أبوه طوال هذه الأيام ينثر فلوسا على من فى المستشفى ويقابل رتبا ليتوسطوا لابنه حتى استطاع فى النهاية أن يدفع مبلغا كبيراً من المال ويحصل على إجازة مرضية لحمزة، وعاد للبلدة، وظل تحت أسرها طوال فترة التجنيد لا يستطيع أن يسافر، أو حتى يعود للملاعب، كرش وأصبح خاملا، ينام

فترات طويلة، لابد فى البيت، ينتظر انتهاء فترة التجنيد، وعندما انتهت وحصل على شهادة التجنيد معاملة رديئة، طلب من أبيه أن يسافر إلى ايطاليا ولكن أباه رفض رفضا تاما قائلا "لما أموت أبقى روح زي ما أنت عايز".

يثير مشاكل لا تنتهى مع الجيران ومع أخوته، يملك بندقية صيد، يسير على شاطىء البحر، ويطلق الرصاص على الطيور، ولو سقط طائر فى البحر ينزل ليعوم ويعود آخر النهار محملا بأنواع مختلفة من الطيور يوزعها على من يقابله فى الطريق حتى يعود خالى الوفاض، حتى توفى أبوه فى ١١ مارس ١٩٩٠، وبعد الأربعين، باع لواحد من إخوته فدان ارض وسافر كما كان يحلم دائما لكن إلى اسكندرية ولم يعد إلى البيت أبدا وان كانت تتناثر أخبار محدودة عنه على فترات طويلة فلقد عرفنا أنه افتتح مقهى هناك، ثم مطعما لشوي السمك، ثم تزوج من بنت سكندرية، ولم تنجب منه، وانه افتتح محلا لبيع الملابس الرياضية، ثم صار موظفا فى نادي الاتحاد، ثم أخيرا مشجعا للنادي يصرف له مرتبا شهريا، فى هذه المدة الزمنية الطويلة، باع أرضه بسعر بخس ولم يتبق له سهم واحد، وفى يوم قاعد على المصطبة، أشد فى الشيشة التى قطعت نفسي، رأيت حمزة يأتى من بعيد، ثم جلس على مصطبة أمام ماكينة المياه، ونادي عيلا صغيرا فى حدود ١٢ سنة، سمعته لأن صوته جهوري يتكلم فى أول الشارع فيسمعه من فى نهايته، حتى لو كان يسامر احدا، الولد

اقترب منه فقال له: أنت ابن مين؟ فابتسم له وقال: هات لى علبة سجائر من الدكان اللى هناك، أشاح الولد بيده وقال وأنا مالى وتركه وسار، قام حمزة وصرخ فى الولد خد يا لَه، وديك أمك ما تتحرك لأفرمك، ارتعب الصغير فتوقف، رأيته يمشي بهدوء، أعرج، يجر رجليه، وعندما اقترب من الولد صفقه بالكف على وجهه "لما حمزة أبو حامض يقولك روح هات سجائر، تبقى تجيب فاهم، صرخ الولد واخذ يقفز على الأرض ويجري، كانت الصفعة التي وجهت للولد كأنها على وجهى، وذكرتنى بميراث الأسى والظلم وان الطفل الفقير الذي يعيش فى قرية دون حماية من عائلة كبيرة هو ضائع لا محالة، اقتربت منه وأنا خائف ان تفلت منى كلمة يجدها استفزازا أو يفهمها خطأ، فتحدث كارثة وهذا شخص مجنون باين عليه، فكرت فى العودة لكن فات الميعاد، قدمي تتحرك غصبا عنى، عندما اقتربت منه ابتسمت ابتسامة صفراء تعودت عليها من كثرة وقفتي فى الدكان، سلمت عليه وقبلته من وجهه وقلت له: عمل إيه الولد أغضبك، قال: الولد ابن الحرام بقول له: روح هات علبة سجائر من عندك يشوح لى، قلت له: دا عيل، نظر إلى بعينيه الخضراوين الواسعتين، اللتين تنطقان بالشر وندبات محفورة فى الوجه، هناك ندبة عميقة سوداء أعلى الخد، كانت زمان تضفى على وجهه براءة طفولية، خاصة عندما يضحك، وهناك جرح غائر ممتد فى خده الأيسر، وظلت غمازة الذقن كما هي، ولكنها كانت مختفية تحت لحية نابتة، ورغم ذلك لم

تستطع أن تخفي الجروح، أن تخفى وسامته، أخذ يعبث فى شعره الرمادي. ثم قال لى: عشان كده أنا ضربته، العيل لّما تكسر فيه الفرخ وهو صغير، يفضل طول العمر فاكرك ولما يقابل حمزة أبو حامض، يقابله باحترام، بهتّ، ثم مد لى يده بجنيهات مطوية ومبلولة بعرق اليد، ثم قام واستند على وأخذ يجرجر قدمه، ويقول لى: سرقوني، أخواتي سرقونى، شفت أخوة يسرقوا أخوهم، يرضيك الواحد فيهم طول بعرض ويلبس أحسن لبس ويأكل أحسن أكل وأنا أبقى فى الحال ده، تصور أنتَ، أنتَ شفتني قبل ما اترك البلد،

طبعا مين ما يعرفش حمزة أبو حامض؟ توقف وقال: أديك أنتَ قلت، حمزة أبو حامض طول عمره نار على علم، والبلد كلها تحترمه وتحبه، وصلنا للدكان، فرفع يديه من على كتفى، وجلس على المصطبة يلهث حتى أحضرت له علبة السجائر فقال لى هات كبريت وحرك يده كأنه يولع عود كبريت، أحضرت له عود الكبريت فأشعل السيجارة، وابتهج فجأة وأخذ يصفق بيده، حلاوتك يا بلد التعريص فيك هواية وفطرة، قلت له: أنت مش فاكرنى مش كده قال: أزاي وعوج فكه علامة الاستنكار: أنت أبن عم فرج مش كده، ضحكت وقلت فاكر، قال لى: كبرت، قلت له الصغير بيكبر والعمر بيمر، أخرج سيجارة من العلبة وقال، طيب خد دي منى ومتكسفش أيدي، ضحكت وقلت والله ما بشرب، أنا بطلتها من زمان، رفع حاجبه وقال: يا راجل وقدرت، قلت: هى بصراحة عايزة عزيمة لأنها زي السرطان فى

الدماغ، قال والله أنت بطل واخذ يطبطب على ظهري، فنبت عرق على جبهتى وشعرت بالحرج، قلت له: تصدق أنت أول واحد علمنى السجائر؟ قال: يا راجل قول كلام غير ده، قلت آه والله، زمان لما ماكنش فيه تلفزيونات وكنا بنروح مقهى عويضة نتفرج على الأفلام هناك، قاطعنى بضحكة غريبة، ثم نهاها ب خخخخخ، أيام الكحرته، تصدق كانت أياما حلوة، والناس كانت قلبها على قلب بعض وكنت تحس كده ان البلد دي أسرة واحدة، ورحمة أبويا أيام زمان، كان لو حد طبخ، يشيل حلة الطبيخ ويحطها على السطح واللى عايز من الجيران يغرف لعياله، كانت الناس تطلع السطح زي القطط على الريحة. اسمع يله اسمع، كانت أمى الله يرحمها تضرب حلة الخبيزة أو السبانخ أو الرجلة وكل واحد فى الشارع، دا صحن فلان، أنت عارف فلان الفلانى اللى غارقنين فى العز دلوقت ويكلموا الناس من مناخيرهم، والله العظيم كانوا بيسفوا تراب، حاولت أن أكمل حكايتي وكيف علمنى السجائر، لكنه لم يأبه، واخذ يحكى حكايات لا رابط بينها، كنت ممرورا وحانقا، كانت بي رغبة حارقة لإكمال حكايتي وكلما بدأت قاطعنى فأحسست كأن شوكة فى حلقى، أريد أن أتكلم أن أقول له اسكت، وفجأة خرجت منى كلمة لا أعرف لماذا؟ كأنها خرجت من بئر، أنت لسه بتقلد أصوات العصافير، صمت واكتست ملامحه بأسى وكآبة وقال بغرد يا حمار، أنا مغرد، أنا طير فى السماء، ثم أخذ يغرد بصوت العصافير والحمام والكروان، وخرجت الناس من

بيوتها على صوته، يلتفون حوله وبدا صدري يخفت فيه الغل، وسامحته وقلت اكيد هلاقى حد أحكي له حكاية كيف علمنى حمزة أبو حامض السجائر، يسلم على أهل البلدة ويأخذهم بالحضن ويستمر فى التغريد، وعندما تعب وتوقف وانصرف الخلق، وظل وحده على المصطبة وقد دخلت الدكان ارتب فى البضاعة، وجد شخصا قريبا له يسير دون أن يلقى عليه السلام، قال المصيبة إني نسيت اسمه، تعرفه؟ قلت لا والله، نادي بصوت عال استني يا كاحول، ضحكت والرجل استمر فى السير دون أن يلتفت وهو يتبعه استني يا كاحول...

٧ – الجزار

كان جزاراً خبيثاً ولئيماً وعنيفا وأهل البلدة يخشونه والزبائن الذين يتقاطرون فى أعداد قليلة فى المواسم، لا يجادلونه فى شيء، حتى لو كانت كل القطعة دهنا، فقراء وأجراء يعملون فى بلدة منعزلة بائسة، لا يزورها الجان، بلدة من قرية محافظة الجيزة، كانت عزبة لأجراء يعملون فى أراضي عمر باشا طوسون الشاسعة، لكنها نمت وتمددت، حتى وصلتها ماكينة الكهرباء التى أضاءت الشوارع، كان جارنا فى بيتنا القديم قبل أن ننتقل على أطراف البلدة حيث سافر أبى وأخي إلى السعودية واشترينا ثلاثة قراريط بنينا عليها بيتنا الكائن الآن والذي لم يمر عليه عشرون عاما حتى تشقق وغطس فى الأرض ونفكر الآن فى هدمه وبنائه من جديد، وكنا نراه وهو يضرب بإصبعه الميزان فيطب ويلتقط بسرعة الورق الثقيل ويلف فيه اللحوم وفى يوم كنا ننام وفجأة وجدنا صرخة تخرج من غرفة أمى، هرعنا إليها وجدنا قلبها يخض بقوة ووجهها أصفر كركم وتبحلق فينا، أفاقت بعد فترة وشربت ماء وقالت: مش حلم دا كابوس، قلنا أي حلم وأي

كابوس، قالت: رأيت جارنا الجزار كأنه حي يرزق واقفا أمام الدكان وهو يبكى وكف يده مقطوعة ومعلقة فى المجوز ويده يقطر منها الدم ويقول غيثونى، غيثونى يا ناس وأهالى البلدة يقفون صامتين كأنهم لا يروه وهو يردد أنا أتقلب فى عذاب أبدي.

٨ – الحشرة

شجرة نبق عملاقة زرعها الجد من ١١٠ سنة، تظلل البيت، فتقيه شر أَقْيَاظ الصيف المهلكة، وتفترش مساحة واسعة أمام ساحة البيت التاريخي، فخلقت مساحة دافئة رحبة لمسامرات الليلة وللأولاد مكانا رائعا للعب والجري وعمل مرجيحة، تتأرجح طول النهار بهم وكانت مكاناً دائماً للرجل السمين، تركي الملامح أحمر الوجه، به مسحة براءة خاصة عندما يضحك يتحول لطفل صغير، لكن عندما يعلو صوته يتحول وحشاً غاضباً يتصور الواقف أمامه خاصة من يعمل معه فى فلاحة الأرض انه سينهشه ويمزقه إرباً وكل فلاح عمل فى

حدائقه الممتدة أمام البيت، كان الفلاح يصدم ويموت فى جلده من صوته الهادر الأجش، وعندما أرسل فى طلبى "تصدق وتؤمن بالله، الراجل ده أنا بكرهه لله فى لله كده، من بعيد لبعيد" هو جارنا لكن أشوف العمى، ولا أشوفه ، قلت أروح أشوف أبن المنكوب عايز منى إيه ؟ أزيك يابا الحاج، وسلمت قال لى بكرة تجيب العزاقة وتعزق الأرض يا سعيد، عيناه جاحظتان ووجهه الأحمر تحول إلى كتلة دموية، تخيلته كلبا أبيض تخينا ينام أمام بيت صاحبه وفجأة تجده هاجما عليك، يا نهار أسود" يهوهو بصوتٍ عنيف دون أن يلمس جلابيتك ثم ينتهى بنباح رقيعة ثم يعود لينام، مثل الديب العلق، أم نبيل قالت، طيب يشرب الشاي الأول يا بو نبيل، رد وأنا حشته ما يشرب الشاي كثير وخير ربنا كثير، لما اشتغلت عنده واختلطت به عرفت أنه كلب لا يَعَضُّ، والحلاوة فيه قرشه حي، تخلص شغلك من هنا، الورق الخضر يطلع بشوكه، قلت صدق المثل اللى بيقول، اللى تخاف منه ما يطلعش أحسن منه، وأنا فى اليومين دول كنت بتنشق على جنيه لأني اشتريت عزاقة جديدة بتمويل بنك التنمية، وعلىّ أن أدفع القسط الشهري فى موعده خاصة أن أخاك يخاف من الدين خوف العمى فما بالك دين الحكومة، يا ويلك يا سواد ليلك، لو وقعت فى الخية يطلعوا عين أبيك، يلففوك كعب داير، عشان كده لو أجوع أكمل القسط الأول، لذلك كنت أعمل من الصباح حتى العشاء والعزاقة عايزة صحة، تفضل ماسك ذراع العزاقة والله آخر النهار لو

وقع تحت يدي كيلو لحمة أنهشه، أيوه يا جدع ببقى زي الكلب المسعور، لكن اللى يهون التعب يا صاحبي ان آخر النهار أحصل قرش كويس، أمسك الفلوس كده وأملس بهم على ظهري، شفا، الفلوس كل حاجة اللى يقول غير كده كذاب، عشان كده ظلت فى بقى وقلت: أروح بالعزاقة عند العجل والقرش أحسن من عين أبو اللى جابوه.

أول يوم كنت هناك الساعة ٧ الصبح، أخذت الغذاء معى، ونزلت الشغل، بس إيه حشيش فى الجنينة يخفى بنى آدم، ومن الساعة ٧ إلى الساعة ٩ يدوب خلصت قراط.

وأنا مالى، العزاقة شغالة والعداد يعد، هو يسيب الجنينه بدون عزيق سنين وعايزنى أخلصها فى يوم، دا على كده تأخذ شهرا، الساعة ٩ قعدت ولعت سيجارة وجدت الحاجة أم نبيل جايه ومعاها صحن كبير وفيه أرز بلبن، أخذت منها الطبق وقلت تسلم يدك يا أم نبيل يا أصيلة، قالت: لو عايز أي حاجة، شاي، أكل، أوع تتكسف، اخذت منها الأرز وبصيت فيه، معرفش شيء لله كده الرز بلبن ما يحبنيش، المعلقة نظيفة وأنا ساقط، سحبت المعلقة وغرزتها فى الصحن وأول ما بلعت أول معلقة، تقول ملبن، مستغرب، آمال الرز بلبن اللى بتعمله البهيمة اللى فى البيت عامل كده ليه؟ الرز بلبن طري على قلبى وعينيه فنجلت، وقمت زي الغل أمسك ذراع العزاقة لحد الساعة ١٢ لقيت الحاج بينادي، يا سعيد، أنت يا جدع أنتَ، الراجل زي ما

يكون بالع ضفدعة عمل لى وش فى دماغى ورحت لقيته حاطط على الطبلية شيء وشويات، أقعد يا سعيد، بغل حاشر فى بقة يجي ١٧ بيضة، ما تشفش يده يا جدع وهى تحدف وقلت: كده ينسف الأكل، وأنا أكل زلط طول النهار، وهات، وارمي، هو لقمة وأنا لقمة مسحنا اللى على الطبلية، قال لى: إيه يا جدع أنت واقع من جبل، بقالك ٣ أيام ما أكلتش، عملت مش سامع، وأخرجت علبة السجاير النفرتيتي، ولقطت واحدة وأشعلتها وعمار يا بطن بعد شوي جابت الحاجة الشاي وشربت، ونمت ما دريت إلا والعصر يؤذن، ومن هنا دقت معرفة، اللى نبات فيه نصح فيه، قلت له في يوم الأرض دي ما اتقصتش بقالها كثير، قال كل سنة بدفع لولاد الكلب الفلوس عشان القص، استغربت، أشجار البرتقال كأنها لم تقص من ٢٠ عاما، والفروع جافة والسرطان نابت فى جذور الشجر، قلت، على الطلاق بالثلاثة يا حاج ما فيه مقص أنضرب فى الجنينة، آمال ولاد المره يأخذوا كل سنة الفلوس على إيه؟ يا حميدة، يا حميده الكلب وفضل يجعر لحد ما حميده، نعم يا ابو نبيل، قال له: شوف سعيد بيقول إيه؟ نهبتونى يا ولاد المره، كل سنة تجيب أنفار تسرقنى، كان لحمه يهتز وبزازه تتطوح مع هزة ذراعه يمينا ويسارا، كانت مؤخرته تفترش قيراط أرض، وكلما حاول أن يتحرك هنا أو هناك، ينادي حميده ونفر من الأنفار يحمله من مكان إلى آخر، وعندما طلب منى أن أحمله مع حميده قلت له، ظهري بيوجعنى، الديسك يا حاج ربنا يكفيك شر

الديسك، حميده واقف والحاج نازل شتيمة فى سنسفيل اللى جابوه، وهو ولا هنا، وكل شوي يبربش بعينيه ويعوج حنكه، وأنا اضحك، وبعدين أخذني على جانب وقال: سعيد كبر دماغك، الراجل ده لو اتبعته يخل دماغك، دا راجل عنده ترينه قلت بصراحة، الأرض دي لم يتم قصها من ٢٠ سنة، نضحك على بعض، قال: هو عايز كده، قلت له إزاي، قال: فى الأول الجنينة كانت مش محتاجة إلا قص الفروع الصغيرة، لأن الشجر كان لسه صغير، ولما الشجر كبر، الأنفار بقوا يقصوا الأفرع الكبيرة، وده الصح، وبعدين صاحبنا شافهم وهات يا شتيمة، تخربوا بيتى يا بقر، عايزين تدمروا الشجر، مين آداكم فلوس عشان تحرقوا قلبى، الأنفار قالت: على ايه يا عم الحاج، طلباتك، قال: الأفرع الصغيرة الناشفة بس وعليها، عرفت بعد ذلك أن الجنينة تعطي ثمارا قليلا، حاولت أقناعه أن يستغنى عن طرح الجنينة عاما واحدا وقص كل الشجر مرة واحدة ولكنه أبى وقال: وآكل منين طول السنة. ومصاريف نبيل فى كلية الهندسة، قلت للحاجة لكنها لم تقدر عليه، قلت لنبيل قال: كويس، وماله حاول تقنعه وأنا موافق، فسكت وانشغلت فى أحوالى وكلما توفر لى وقت كنت أذهب وأقعد مع الحاج والحاجة وفى يوم وجدت شجرة النبق تجف أوراقها، والفروع الكبيرة بدت تنسلخ عن ساق الأم، تحركت بعيدا عن القرع المسلوخ وقلت: يا أبو نبيل، الفروع دى مخوخة وفى أي لحظة هوب تقع، ضحك وانتهى ضحكته ب خخخخخ جبان يا

سعيد، دي شجرة أصيلة، زرعها جدي، شفت عمرك شجرة تخون صاحبها، قلت فى سري مجنون ده ولا إيه؟ إيه يا عم الحاج، دي شجرة، واقتربت من جذع الشجرة وجدت الحشرات تحزمها وتنخر فيها، تقرض بأسنانها فى الجذر مثل الفار، واستطاعت أن تفتح لنفسها ممرات فى قلب جذر الشجرة، صاعدة إلى الساق، ضربت على الساق كانت ترن، بهت، ملايين الحشرات الضئيلة نشطة، كأنها فى مهمة مقدسة، اقتربت بحذر وانتزعت واحدة، وقربتها منى، ارتعبت وانتفضت بعيدا عنها وكأنني رأيت له عينين تبحلقان فى بنظرة محدقة لم أر شدة عنفها وقسوتها، وضوء كالسهم ينطلق منها رغم ضآلة عينيها اللتين تريان بالكاد، انتزعت نفسي من المكان، وقلت، سلام يا حاج، وجريت، خد يا سعيد، خد يا هباب النيلة، وأنا فريرة، ومر عام وطلبنى أبو نبيل لكى اعزق الأرض، وكان لم يعد قادرا على السير أبدا، فتم صنع مِحَفّة، ينتقل بها من مكاناً لآخر من خلالها، يحمله حميدة ونفر من الأنفار الدائمين، الذين يقومون بري الأرض والتسبيخ الخ، ومرت الأيام، واحنا على دا الحال، لكن بينى وبينك، أنا كنت أخاف انام تحت الشجرة مش عشان الفروع الضخمة دي، أبدا لأن فى النهاية الفروع دي بتاخذ وقت فى السقوط، يعني أول ما تطقطق، أجري، لكن الذي كان يرعبني فعلا هو هذه الحشرة الصغيرة الدءوب فكنت أخاف أن اغفو فتهجم على مرة واحدة وتسحبنى داخل الشجرة وتمضغني خاصة اننا بعد رؤيتي لها، كانت تهاجمني

الكوابيس، لذلك كنت أستريح تحت ظل شجرة برتقال بعيدا عن شجرة النبق "العمر مش بعزقة"، وفجأة سمعت وأنا بين الصحو والمنام، طقطقة، طقطقة قوية، قمت مفزوعا وجريت فاكتشفت أننى بعيد عنها تماما ووجدت فرعا ضخما، يتخلى عن ساق الأم وأبو نبيل ينظر إليها، لاهثا مرعوبا و ينادي، يا حميده يا سعيد يا نبيل يا حميده، وأنا تنبهت على أن فرع الشجرة سيسقط مباشرة على جسد أبو نبيل، أخذت أنادي، يا حميده وأبو نبيل يشحر وصوته مخنوق، ينادي على ولا اسمعه و جريت داخل البيت، وجدت أم نبيل تطهو الطعام، خبر إيه يا سعيد؟ فرع الشجرة بيطقطق ولو وقع هيقع على أبو نبيل يدهمله، جرت أم نبيل وهى تردد، يا خرابى يا خرابي يا بو نبيل، يا غالى، لم تستطع أن تقترب منه وكأنها تقف على شاطى بحر هائج الأمواج، والرجل وجهه كتلة دموية يستغيث، وما من مغيث، جريت فى الحديقة، أنادي يا حميده وأنا اجري وجدت الفرع هبد على الأرض هبدة قوية مزلزله، توقفت ونظرت تجاه البيت وجدت غباراً عظيما يتطاير فى الجو وصمت مطبق.

٩- المقطوع من شجرة

كهل فى الثمانين، مقطوع من شجرة، يعيش وحيدا فى بيته الصغير، ليس له أولاد أو معه زوجة، ظل يعمل مع ثري من البلدة، وعندما مات الثري استمر مع أبنه الغندور المحب للحياة، والذي لم يفكر فى الزواج أيضا ، يسهر، يشرب وعندما لا يجد أحدا يضحك منه، يبعث فى استدعاء العجوز، ويحرض الأنفار لتدبير مقالب له ، فيسرقون منه علب الحلاوة الذي يعشقها، ويسرقون المنديل المحلاوي الذي يسعفه من سيل لا ينقطع من أنفه وهو النظيف، يجعلونه ينام ويضعون بين أصابعه ورقة ويشعلون فيها النار، وهو الصبور، الذي يغضب ويترك العمل، ثم فى الصباح التالى يجدونه يسبقهم، كنت وأنا أشتغل نفرا معهم قبل أن أعمل فى مهنة المباني وأصبح معلما، أتفنن فى السخرية والنيل منه بكل الطرق لنيل رضا الغندور وكنت أسأل لماذا يحتمل إهَانَةً اللى يسوي واللى ما يسوي؟ ومن أي بلد، قال لنا الغندور إنه جاء إلى البلدة ليعمل عندنا فى جمع التين وهو أصلاً من المنوفية، وفى يوم لم يأت استغربنا، وفى نهاية اليوم ذهبنا كالعادة لبيت الغندور، لم نجده، قيل لنا فى بيت الشيخ عبد الوهاب، قلنا فرصة نضحك وننبسط، ذهبنا حتى وصلنا للبيت الذي لم يكن بعيدا، وكان عبارة عن أوضتين وصالة وبيت راحة ببرميل، كان الباب مفتوحا، دخلنا وجدنا العجوز نائما على مرتبة سرير وبجواره الغندور، يمسح عرقه، جلسنا بعد السلام، وألف سلامة يا عم عبد الوهاب، والله الأرض كانت مظلمة اليوم، كان يرد بوهن شديد، ويكاد صوته لا

يخرج، فقط يحرك شفتيه، وفجأة قال بصوت واضح لا لبس فيه، عايزك تعاهدني قدام الرجالة انك تعمل لى صوان كبير وتجيب مقرئ متصيت، وتدفننى مع المرحوم أبوك، قال له حاضر، حاضر والله زي صوان أبويا بالملى، وأدار ظهره له فوجدت في عينيه تجمعا دمويا ودموعه تسيل.

١٠ . الشُبَّيْط

لى مصلحة فى القاهرة لذلك ارتديت ملابسى وتوجهت إلى الموقف، فلم أجد سيارة تقلني، فركبت تيوتا حتى الطريق السريع ونزلت فوجدته يقف فى انتظار سيارة أيضا، كهل مجنون على حافة "القدوس" ورغم ذلك، كان مازال مفعما بالرغبة فى الحياة، وتشعر أن داخله أمل وعافية لا تتوفر لشاب، جاري وأعرفه، مثير للمشاكل، وكان أهل البلدة يطلقون عليه "الشُبَّيْط"، متخصص فى كتابة الشكاوى، فى الأهالي ، سواء كانت له مصلحة أو لا، يفرح بأذية خلق الله، فى يوم جاءت الشرطة وقامت بهدم بيت لأنه مبني أساسا على أرض تخص الإصلاح الزراعي وتصور من تم هد بيته أنه الشاكى ، فذهب إليه وكسر الباب وضربه علقة موت وكسر له قدم ، فظل يقدم شكاوى في الرجل حتى باع بيته وترك البلدة .

عم رشوان: كهل أريب يحفظ أنساب أهل البلدة، ويعرف نقاط ضعف كل واحد والوقائع المشينة الملتصقة بالسلسال، فلو حدثت خناقة بينه وبين أحد، على طول يُخرج من دفتر مكتوب سيلا من الوقائع

المخزية المدعمة بالوثائق والشواهد، لمن يقف فى مواجهته، بجح، لا يخجل، نطع لا يعنيه أي شيء وعدمى لا يفكر إلا فى ذاته، يسخر من نفسه وأهله والأقربين من أولاده، أمه أبيه، حالة نادرة فى القرى، حدثت بينه وبين صلاح مرعى قال له: اسمع يا صلاح، فى البلد ١٠ كانوا أهل البلدة لا تعرف لهم أبا وينادي عليهم باسم أمهاتهم، فلان وفلان وعد ٩ والعاشر صلاح ابن تحية بتاعة البيض، أنت محدش يعرف لك أبا، أنت ابن مفيش، خلصت، فرفر صلاح، ونزل سبا فيه، وهو ولا هنا، أخرج سيجارة وأشعلها وقال: أنا ابن فلان الفلانى واخذ يعد أنسابه، ثم تركه وسار فى الشارع. رغاى، لا يمل الكلام، فضولى يتدخل فى ما لا يعينه، ولذلك يقع فى مشاكل لا آخر لها ولا يتوب أو ييأس من الاختلاط بالناس.

جاءت سيارة ميكروباص، فقطعت افكاري جرى كل الواقفين وجريت انا ايضا رغم والله لولا استعجالي خوفي أن أعود بخفي حنين ماركبت معه، وجدته قد مد العصا حاجزا به كرسيا له جوار سيدة، سنها يقترب من الأربعين، ولكنها جميلة ووجهها يبك دم وجسده طري، حاول شاب أن يزيح العصا ويجلس شبط فيه واخذ يشتم فيه و كلب ابن كلب وسخ، تقعد ازاي وانا حاجز الكرسي، قال الشاب عيب يا حاج احترم سنك، سنى، أنا أصبى منك يا وسخ، شايفنى ماشي على أربعة وعلى رأي الشاعر، واخذ يلقى زجلا موّت الركاب من الضحك، حتى أنا المتغاظ من أمه ضحكت، نزل الشاب وقال:

رجل كبير وناقص، ناقص ونزل سيل شتيمة فى الشاب، رغم أن السيارة قطعت مسافة بعيدة عن المحطة، ارتديت النظارة لكى لا يتعرف علىّ، ويصدع دماغى ولكن بصراحة مركز عليه وعلى ما يفعله ثم نظر إلى السيدة التى تجلس جواره

- اسمك إيه
- رقية يا حاج رشوان
- أنت تعرفينني
- أمال ايه، أنا رقية بنت عبد الحميد عمران
- يه يه وبنت عبد الحميد عمران اللى فى المحطة
- ايوه
- أبوكى عامل إيه، عايش
- ربنا يديه الصحة، تمام
- وأنت متجوزه
- الله يرحمه وتعيش أنت
- مات
- ايوه
- اتجوزتى
- أتجوز إيه يابا رشوان دا عندي رجاله
- بسم الله ما شاء الله، بس دا حقك و الجواز ما حرمش
- خلاص بقى يا حاج، احنا أخذنا نصيبنا من الدنيا،

اقترب منها واخذ يهمس لها، وهى اتزحزحت والتصقت بحائط السيارة، بدا صوته يتضح

- الحلال يحمي الست من الفتنة، وأنت بخيرك

ضحكت، أنا خلاص ما عدش ليه طلب فى الرجالة بعد المرحوم

- ونسه يا بنتى، فى ليالى الشتاء الطويلة، تلاقى حد تتكلموا سوا

- لا خلاص كده كفاية

- كفاية، أنا غرضى مصلحتك

كانت تضع البيض فى سبت أمامها وفى سبت آخر جبنا ولبنا حامضا، وعندما توقفت السيارة فى بلدة نكلا، قالت استأذن يابا رشوان

– ومالـه يا بنتى، كان يجلس فى الكرسي الأول وراء السائق فى مواجهة الباب، فنزل وحمل منها الأشياء وعندما نزلت مد يده فسلمت عليه وقال لها عايزه حاجة، تخدي فلوس، أوعى تتكسفى من ابوكى رشوان، يضع يده الأخرى على يديها وهى تحاول أن تسحبها وهو يقبض عليها والسائق ينادي عليه، والركاب ضجرة، حتى انتزعت نفسها منه، وجد رجلا قد ركب مكانه، وبعد مدة نزل راكب آخر، ثم توقف السائق مرة ثانية وتقدمت سيدة فمد يده إليها وشدها، فشكرته السيدة وعندما لم تجد مكاناً وقفت منتظرة، فقام من على الكرسي

وقال: لها تعالى اقعدي. عيب، عيب ست كومل زيك تقف، وعيال قاعدة.

قالت خلاص يا حاج.

والله أبدا، لازم تقعدي، فجلست على الكرسي وجلس هو على المسند وراء السائق، واخذ يتكلم بصوت مرتفع

" أصل عيال اليومين دول معندهمش ذوق، العيل يبقى زي فلق النخل طول وعرض وحاطت سلسلة فى رقابته ويندغ لبان ويجي راجل كبير زيي يقف وهو قاعد زي النطع.

وضعت يدي على جبهتي لأداري وجهى ، وأنا فى غاية الحرج، من هذا المافون الوقح،منتظرا أن يشتبك مع أحد من الركاب ، وهذه ليست المرة الأولى ، فقد كررها عشرات المرات ، يبزق فى وسط اثنان يتسامرون ، ويتجادل جدل رخم ، فى البداية ، يحترموه ، ويتناقشون فى أريحية وود ، ثم تدب خناقة ، لذلك قررت أن لا أكمل الطريق معه وان انزل فى المناشي واركب باص آخر، ثم توقف الباص لالتقاط امرأة ضخمة خارجة من مدرسة إعدادية، كانت تلهث وهى تصعد للباص فمد العم رشوان يده لها.

أيدك يا حاجة،

قامت السيدة بنظر يده فى قوة وقالت، ابعد يدك يا راجل أنت، هو أنا مشلولة. صدم عم رشوان وبلم ثم فجأة انفجر فى البكاء، وأنا رأيته يبكى والدموع تسيل من عيناه بغزارة وأخذت أضحك، ينهنه والركاب

يحاولون تهدئته دون فائدة، وهو يردد هو أنا هاعرف أنام الليلة، أنا هتقلب على جمر، أنا عملت حاجة غلط ، دي زي بنتى وأنا غرضي أخدم.

والسيدة ملتزمة الصمت دون ان تبدي أي نوع من الاعتذار أو بل ريقه بكلمة طيبة ، تهدي النار المشتعلة في صدره وعندما نزلنا، جلس على الرصيف مرددا فى صوت واهن حزين، الله يسامحك، الله يسامحك.

١١- مطوة قرن غزال

الصرخة القوية ، كانت كفيلة بتنبيه الجالسين على المصاطب ، ومن فى البيوت والمارة ، تركت الدكان ، وذهبت لأرى ما يجرى ،لم تكن الصرخة بعيدا عن الدكان ، مجرد عشرة أمتار لا أكثر فى مفارق الشارع ، اقتربت وجدت شاباً غارقاً فى دمائه ، يتحرك فى دوائر ، وهو يتألم ، ينظر إلى الأرض ويداري وجه بيده وفى المقابل وقف شاب فى يده مطوة قرن غزال ، ويمسك بيده الأخرى تليفونا محمولا ، وهو يزعق ، أيوه ، قلت لك ، شارع السوق ، بسرعة ، لو استمر فترة طويلة ، هيموت ، أنت فاهم ، قلت بسرعة " نقول ثور يقولوا أحلبوه .. أن جرى له شيء ، حسابكوا عندي.

يده القابضة على التليفون ملوثة بالدم رغم أن المطوة فى يده اليمنى ويبدو أنه تخلى مؤقتا عنها ، عندما كان يخرج التليفون المحمول من سيالة الجلابية الزهري ، والدم تناثر عليها ،حاولت أن أتبين ابن من المضروب ، ولكن يبدو انه لم يكن من أهل البلدة ، خاصة أن البلدة امتلأت بالغرباء ، جزء من مدينة القاهرة وجزء من المنوفية ، هجمة من غرباء يحزمون البلدة ، كان المضروب ساكناً

، لا يرد على أحد ، جسمه متهدل ، ينظر إلى الأرض ، يرتدي بنطلوناً قديماً متسخاً ملطخاً بشحم سيارات، مخرم من أماكن كثيرة ، وقميصاً رمادياً مفتوح الأزرار ، يظهر صدره المشعر ،أما الآخر ، فقد كان وجه الغاضب يبدوا عليه الطمأنينة وراحة البال ، تساءلت بصوت ضعيف ، هو فيه إيه ؟ لم يرد أحد التجمع يزداد ، زوجتي نادت علىّ فتركت التجمع وذهبت إليها ، فيه إيه ؟ردت على بغضب وبصوت حاولت إن يكون خافتاً ولكنها لم تستطع ، أنت وقف فى وسطهم كده ليه ؟ قلت لها مش هيحصل حاجة ، قالت وأنت أش عرفك ؟ كلها شوي وأهله يعرفه ، ، دول شوية بلاوى زرقا ، ادخل جوه ! هو أنت كل ما تحصل مصيبة فى الناحية ، تروح وتقف فى نص العركة ، أحنا مالناش دعوة يولعوا فى بعض .

أحسست بالضعف ، وان منطقها صحيح ولكن كنت أكابر، حتى لا اظهر ضعفي، وخوفي خاصة ، أنني عندما رأيت المطوه، فى يد الولد، ورأيت شفرتها تلمح والتحدي فى نظرات الولد ، خفت وتخيلت المطوة تغرس، فى جسمى آلاف المرات ، حرّت ، ووقفت على المصطبة ، لا اعرف هل أغلق الدكان ، أو أصر على كسر حدة الخوف داخلى، وداخل زوجتى ، مر علينا الشاب الذي يقبض على المطوه بقوة ،زادت دقات قلبى ، وزاد الحنق داخلى ، وتمنية أن يلهمنى الله الشجاعة لكى أفرط أسنانه ، وأمرغ بيه الأرض. ثورة تنتابنى وبى رغبة فى ممارسة العنف . يا حيوان أنتَ ، بقولك

هيموت ، عندما ظهر وجهه فى نور الدكان تبين انه طفل ،لا أكثر، ولكن جسده ضخم ،يضاعف سنه ، بدت يده ترتعش ارتعاشاً خفيفاً ، ثم أغلق المحمول ووضعه فى السياله ، واقترب من الدائرة المحيطة بالولد ، ثم قال : حد يقول له ، أن لا يتحرك ، كل ما يتحرك النزيف بيزيد ، خلوه ينام على الأرض .

سمعت صوت الإسعاف الذي توقف أمام الدكان ، تحرك الشاب الذي يمسك المطوة من الشاب الجريح ، وقال له : استند على ، استسلم الشاب واستند عليه ، وفتح باب الإسعاف الخلفي ورفعه بيده ،حتى دخل الإسعاف وجلس على الكرسى المقابل له ، تقدم احد الموجودين يبدو أنه يعرف الاثنين وقال : أنا جاي معاك ، قال بحسم لا محدش رايح معاه غيرى ،أذعن الشاب وتراجع ، والمسعف سحب الباب وهو يغلقه ، لمحت المطوة كانت ما تزال فى يده، لم يتخلى عنها وشفرتها كانت تلمع وتنعكس على الحائط المقابل للدكان .

١٢- بار مزدحم بالحمقى

استلم مرتب شهر مايو ثم دخل على المدير وقال له أرغب بالعودة ، رد المدير ليه أخى ؟ فأشار بعلامة الذبح المنتشرة فى البلد فى الفترة الأخيرة ، هز المدير رأسه وقال : أتفهم أخى ، وسلم عليه وقال له : أي وقت ترغب بالعودة يا مرحبا ، جهز للعودة وأستلم حقوقه المالية كاملة، لمّ الأغراض وحجز تذكرة للعودة، وانتظر موعد اقلاع الطائرة .

كانت هذه الفترة عصيبة في حياته، هلاوس مدمرة وكوابيس شيطانية يري نفسه مذبوحاً ومرميا فى الصحراء تتخطفه الطير ، فيقوم مفزوعاً من النوم ، لعل الزمن توقف ، لعل النهار والليل تضاعف ، لعل قوي شريرة ،أوقفت الشمس فظلت بلا غروب ثلاث أيام ، ضجرا يدور فى الغرفة ، كثور فى ساقية، ويظل طوال الليل يقظا ويخطف فى النهار غفوة تقيه جنونا محتملا، حتي تيقن أنه سيعود جثة في صندوق، وعندا جاء موعد الرحلة إلى القاهرة ، لم

يكن يصدق نفسه صعد درج سلم الطائرة ، وجهه ممتقع بصفار موتي، يرتجفا، ارتجاف عنيف وقد وصف هذه الفترة القاسية فى قصيدة طويلة فى ديوان لم ينشر بعد وينتظر اللحظة المواتية لكى تستقر الأمور، يقول في القصيدة :

سأم مرير يشبه الموات
صحراء تتمدد فى روحى
معلق فى فضاء سقيم
وأنا أطفو فى ضباب لزج
أتطوح كطير على شفا الهاوية
باحثا بعين نصف ميتة
عن ماء لا وجود له
عن نبته
فقط خواء
يسم العالم .

وعندما وصل إلى مطار القاهرة ، دخل السوق الحرة ،وأشتري كفايته من الخمر وعاد للبيت فى منتصف الليل ، وظل أكثر من ثلاث شهور لا يخرج من البيت ، يشرب حتى يفقد الوعى، وزوجته تحضر له البطانية لتغطيه بها ،وتندب حظها العاثر ، الذي رماها على مأفون ، حتى أصبح ضخماً وله كرش كبير ، فقرر أن يتوقف عن الشرب خاصة، مع بدء الدراسة ، وقد شطب على الأموال المتوفرة،

وعاد مرة أخري للسحب ، على النوتة من الدكان. ولأن المرتب ضعيف ورغم كراهيته للدروس الخصوصية، ليس لجانب اخلاقي بالمرة فهو معدوم الضمير ويستطيع ببرود أن يأكل لحم أخية ميتاً ولكن لكسل تاريخي يجعله لا يريد من الحياة سوي الشراب والنساء أن وجدت والأكل غير ذلك لا يعنيه شيء كله قبض ريح لذلك عاد لإعطاء دروسه للطلبة ، ويجب أن يظل فائقا حتى لا يتشوش ذهنه وتختلط عليه الأمور ويرتكب جرما فى المدرسة .

٢

يضطجع على السرير فى غرفة النوم، ويتدثر ببطانية ثقيلة تقية البرد ،و يشرب الشاي، ويسمع أغنية ،محمد عبدالوهاب

مين عذبك بتخلصو مني وذنبي إيه بتعذب فيا

ليه العوازل حاسديني دول حقهم يبكوا عليا

رن الهاتف وكانت صديقته الكاتبة تتصل به وتطلب منه أن يلتقيا ، خاصة أنها لم تره منذ فترة طويلة بسبب عملها فى مدينة ساحلية وتركها القاهرة من أربع سنوات .

فى البداية حاول التهرب منها ، لكنها أغوته بزجاجة خمرة ماركة رائعة على حسابها ، تراجع واستسلم ووافق على الميعاد ، بعد أن أغرته فكرة العبث معها ،وفى الميعاد المحدد ، ارتدى قميصا وبنطلونا وبلوفر وفوقهم بالطو لونه فيرانى فبدا كدرفيل حقيقي .

ركب المترو ونزل وسط البلد ، فى البداية ، مر على مقهى البستان، فوجد صديقا قديما وشابا يكتب القصة ، لم يكن يعرفه جيدا، ولكن وجد أن الجلوس على المقهى ومعرفة أخبار الوسط الثقافي مفيدة ، طلب شايا وبدأ النقاش وكان كاتب القصة متحمسا وكل آن ينغزه لكى يلفت انتباهه نغزات حادة فى كتفه أو ركبته ، صمت فى البداية ثم بدأ يغتاظ وعندما تكرر النغز ، رشف رشفة من الكوب ونادي على النادل ودفع الحساب وترك المقهى، دخل البار، كانت الصديقة موجودة أخذها بالحضن وقبلها وسحب كرسيا وجلس جوارها ، طلبت زجاجة خمر، وبدا يشرب ، ويتحدث معها عن الحياة والعمل ، والذكريات والشعر ، والوسط الثقافي الفاسد، الذي يزيح المواهب ويحتفي بالغث، يتكلم بنصف ذهن ويرتب الباقى ، كيفية استدراج الكاتبة الشبقة التي تلمع عيونها بالرغبة المتوحشة، لشقة صديقه ، الغائب فى دولة عربية حيث يعمل فى جريدة في القسم الثقافى، ثم دخل شاب وسيم شعره أسود يسقط على عينيه، شيك ، نحيف يلبس جزمة ملمعة مدببة ، سوداء ، يفوح منه عطر نافذ .

مساء الخير

مساء النور

أشار للكرسي ، فاضي و ردت الكاتبة، طبعا، طبعا اتفضل، ابتسم ميرسى على ذوقك، تشرف .

أخرج علبة مارلبورو وسحب سيجارة ناولها لـه قال : أشكرك و قدم واحدة للكاتبة و قالت مرسي خالص وسحبت السيجارة وأشعل لها واقترب منها وهى ابتسمت له ابتسامة مغوية ، ثم عادت للكلام معه

– احنا كنا نتكلم فى إيه ؟

آه ، ثم عاد الحديث ولكنه حديث متقطع ومع نظرات متواطئة مع الشاب الغندور ، ارتبك الكاتب وبدا أنه يصمت ويسرح مضطربا ، كان يريد أن ينسحب ، وقد شعر بالحرج ، ثم أخذت تصفق بيدها ثم تطبل على الترابيزه وتغني لشادية

مخاصمني بقالو مدة وف ليله الشوق ناداني

كلّمتو سمعت حسّو .... وقفلت السكّة تاني

أكمنّو يا ناس واحشني ...وخصامو كمان حايشني

كلّمتو سمعت حسو وقفلت السكة تانية .

ضحك الغندور، ضحكة رائقة وقال : صوتك حلو خالص ، فيه دلال وإغواء ، والله أحسن من شادية ، ضحكت ضحكة فاجرة ، وكأنها ضربت الكاتب فى جانبه سكيناً .

تشوش ذهنه وبدا فى غاية التعاسة لم يكن يتصور أن يهمش بهذا الشكل البشع، مع أنها لم تكن ابدا فرسة، تسحق الغيرة ولكن لا يعلم ماذا جري له وكيف تم سحقه واذلاله وكان الموضوع مترتب

– يا أبنه القحبة يا شرموطة.

كان يعرف تاريخها الأسود ،وتصرفاتها الفجة ، ولكنه لم يكن يعلم انها بهذا المكر وتقلب الأمر معه من كونه المسيطر والمركز ، أصبح فى الهامش ،وكلما أنجرفت بعيدا عنه، وأنه لم يعد قادرا على السيطرة عليها، وإنها لم تعد فى احتياج له، احس أنه يتدحرج، كان يريد أن يترجاها أن تعتقه ولكن لم يجد فرصة، فقد صوته في مواجهتها الوسخه، كان رتب نفسه على أن يستأذن بعد فترة بسيطة، ولأن كل المثقفين ينفرون منها ، لصراحتها وعنفها ، وحمقها ، تصور أنها ستلحق به ويفرض عليها أن تذهب معه لتقضي باقى الليل ،لكنه خُذل ، كان يريد أن يغير هذا الروتين الموات الذي يعيش فيه ، يريد أن يطفو ، أن يتنفس هواء جديدا ، قامت وأخذت ترقص وانتبه رواد البار على رقصها الجميل وجسمها المتوحش الذي يتألق ، يصفقون ، ويهللون ، تتدلل ، قام الغندور وسحب الكوفية ، من على كتفه ،ولفها حول وسطها ، وأخذ يرقص معها ، التقت عيونهم وهى تتهتك وعرق ينبت فى جبهتها ، قال الكاتب : داعرة ، مومس ، أخرج الفلوس من جيب البنطلون ،وعد الفلوس وسحب منهم أجرة المواصلات ،وأكتشف أن الباقى يكفى لزجاجة خمر رخيصة ، كان الغضب يتأجج فى صدره ، وينتابه عنف غريب ، ولكنه كان غير قادر على استخدام العنف ، يخاف من نتائجه ،وهو الذى جرب استخدام العنف الذي أكل روحه ، ينظر

إليها ويزداد غلياناً ، يشرب من الخمر الرخيصة ، ويحاول أن يبتسم ، أو يشارك بتصفيق ولكن يده مغلولة .

ارهقت، فجلست على الكرسي تتنهد أسْيانة

– ياه ، مش كل يوم الواحد بيفرح ، أنا سعيدة بجد ، قال الغندور :

–يارب تفضلى سعيدة على طول ، ثم فتح علبة المارلبورو وناول الكاتب واحدة فرفض ثم ناول الكاتبة واحدة فأخذتها ، ثم أخرج الكاتب علبة السجائر الكيلوباترا وسلت سيجارة وأخرج الكبريت واخذ يشط العود ولكن الهواء المتدفق من شباك البار كان يطفئه كرر الأمر أربع مرات ،ولكن دون جدوي ، أخذ الغندور الولاعة الذهبية واقترب من الكاتب وضغط على الولاعة فبرزت النار ، وقف الكاتب فى مواجهة الغندور وقال : المشكلة مش فى الكبريت ، المشكلة فى الهواء يا عرص . وضرب بيده الولاعة الممدودة بيد الغندور فطارت وخبطت فى الحائط ، ثم انسحب ، من البار وسط ذهول الغندور ، والكاتبة، ورواد البار .

١٣- المضطرب

عشت قصص حب متتالية وعندما وفقت فى النهاية إلى نصفك الحلو ،شعرت أن الحياة بدأت تبتسم لك ، أيامها كنت تنعم بالحب الصافى ، تتقلب فى النعيم ، وبعد مرور عام على زواجك حدث مالم تكن أبدا تتوقعه حتي فى الحلم،هل لكونك ساذج ام لكونها ممثلة بارعة دخلت البيت فى وقت خاطئ ، فوجدتها فى حضن رجل آخر ، سقط مغشيا عليك، وظللت فى مصحة نفسية ٢١ يوما،ثم خرجت على إثرها بكيس مسكنات ومضادات للاكتئاب ، تجعلك مستغرقا طوال اليوم فى النوم وعندما تفيق ، تجد نفسك غير قادر على ممارسة حياتك الطبيعية، طلقتها،عليك الآن ان تستريح، نعم اعلم انك تعيش وحيدا،ولكن حياتك ليست خراب كما تتصور فقط حاول أن تتجاوز الأزمة،ليس طبيعيا أن تذهب إلى العمل ،وتجلس منطوياً على نفسك ،وحتي عندما ينتهى العمل تظل ملتزمَ الصمتِ ، وتكتفي

بمشاركة الحديث بابتسامة باهتة مكسورة، انت تدفن نفسك بالحياة يا صديقى،إيه يا سعيد مالك ، أنت حزين ليه ؟ هل كنت تتصور أنك تعيش فى مكان مثالي ؟ فى الجنة ، أنتَ تعيش وسط غابة قذرة ، الأخ يقتل أخاه ، الأب يغتصب ابنته ، الجار يطعن الجارة ، لست أول ولا آخر من يُطعن ، لست آخر من يتم خيانته ، أنت واحد ضمن ملايين فى هذا العالم ، تعرف ، أعرف أنك تعرف ! لماذا إذا سوداوي ، لماذا لا تخرج ،لماذا لا تتجاوز آلامك ، أحزانك ، لماذا لا تشارك وتدوس على كل الأحداث المظلمة التى مررت بها وتبدأ من جديد ، أعرف أنك وحيد ، أعرف أن الوضع قاس ، وان الأمور ليست كلها فى اليد وأن قدرتك على تجاوز آلامك أضعف من إرادتك ولكن الحياة لا تتوقف ، للحياة نهاية أيضا ، وإن لم تصمد و وتقف كرجل صلب ، فإن آلامك ستجرفك ، ستضيع ، اقترح عليك اقتراحا ،لماذا لا تحب من جديد ، هل هى الأولى والأخيرة ، فتش فى العيون ، فتش فى الحياة عن امرأة تحبك ، الدنيا تجود بقدر آلامك ، صوتك حلو ؟ لماذا لا تغني، غنّ ،مش مهم حد يسمعك ، غنّ وخلاص ، غنّ لنفسك ، أعرف أنك لم تغنّ منذ فترة طويلة وأنه من الممكن أن يخرج صوتك خشنا ، مجرد حشرجات ولكن والله ستستريح ، ستشعر بروحك ترفرف ، أيوه يا جدع ، اغسل نفسك ، الروح زي أي حاجة فى الدنيا عايزة تصنفر ، عايزه تلميع وإلا تصدأ ، ركام من الصدأ يخنق الروح ، والغناء هو الزيت يلمع موتور الروح ، الغناء هو

من سيطيب روحك الخربة . نعم ، فى هذا الظلام ، فى هذا الوحل ، غنّ أغنيتك وليسحق العالم ويذهب للجحيم

١٤- جمل المحامل

لو هيّئت له الظروف وتعثر فى مدرب محترف لمصارعة المحترفين وهو شاب لحقق بطولات دولية .فقد كان يتمتع بصحة فيل، جبار ، طولا وعرضا ، ووجه يبك دما ، لا يدخن ، لا تخرج منه كلمة صغيرة ، أو يذكر أحدا بسوء ، طيب ، خجول ، يرخى على قلبه نوع من الطمأنينة وراحة النفس وسكونها ، فكان من الجامع إلى المصطبة ،

لا يذهب إلى أحد ويرحب بكل ضيف ، وعندما يزهق من القعدة يمدد جسمه وينام .

كان أهل البلدة يسمونه جمل المحامل ، استطاع بناء ثروة من كده وعرقه وعرق أولاده، ولم يكن ينغص هذا الكيان سوي أهل بيته،فهو ممتحن فالزوجة من أسبوع الفرح سودت عمائم الرجال وأقامت علاقة مع خادم لديهم يعلف البهائم ، ثم مع جار ، ثم أخيه ، كانت فرسة شبقة ، مخبولة ، عندما تري رجلاً لا تركز، ولو كان الشيطان حارسها ، أنجبت منه هو ، وليس من أحد آخر. سلالة هجين أكثر قوة وشراهة فى الطعام والجنس ، ثم كانت ابنته ، منذ سن الثانية عشرة تقيم علاقات مع طوب الأرض ، ومع ذلك تزوجت غندورا حقيقيا ، وعاشا فى سعادة وأنجبا أولاداً فى غاية الحسن وبنات فاتنات ، وعندما زوج ابنه البكري ، لابنة أخيه ، شمت من ريح الشبقة ودارت على حل شعرها تصطاد شبابا بمزاجها ، وعندما يدخل ويجد أصوات فحيح فى غرفة من الغرف ، يصاب بالغم ويقول " بهائم " ثم يعود للمصطبة يسبح ، ويسقط حبات المسبحة فترن ، كاظماً غيظه .

الفهرس

١- الغندور

٢- اللصوص

٣- مرثية

٤- مسامرات ليلية

٥- المعلم

٦- ندْبَة المُغَرَّد

٧- الجزار

٨- الحشرة

٩- المقطوع من شجرة

١٠-الشُبَّيْط،

١١- مطوة قرن غزال

١٢- بار مزدحم بالحّمق

١٣ – المضطرب

١٤ جمل المحامل

عبدالنبى فرج

روائي مصري له العديد من الإصدارات منهـــا:

- **جسد في ظل (قصص)**
- **طفولة ضائعة رواية**
- **الحروب الأخيرة للعبيد رواية**
- **ريح فبراير رواية**
- **مزرعة الجنرالات رواية**
- **سجن مفتوح رواية "**

* **زواحف سامة رواية تحت الطبع**
* **يد بيضاء مشعة**

abdlnabyfarag70@gmail.com